الفصل الثالث

# الشعر

## ١

### كثرة الشعر والشعراء المخضرمين

تزخر كتب الأدب والتاريخ بما نُظم من أشعار فى صدر الإسلام ، وهى أشعار كثيرة ، نلقاها فى كل ما يصادفنا من أحداث العصر ، فليس هناك حدث كبير إلا ويواكبه الشعر ويرافقه ، وكان أكبر الأحداث دعوة الرسول صلى الله عليه وسلم إلى الإسلام ، وهى دعوة اضطرته إلى حَمْل السيف للذياد عنها ، وانقسمَ العرب بإزائها مؤمنين ومشركين فكان هناك من آمنوا وحَسُنَ إيمانهم ومن وقفوا يدافعون عن الدين القديم ويصدّون عن سبيل الله ، وكل ذلك نجده ماثلا على ألسنة الشعراء . واستقام أمر الإسلام فى الجزيرة ، غير أن أقواماً ارتدوا لعهد أبى بكر ، فحاربهم ومثّل الشعر هذه الحرب ، ثم كانت الفتوح ، فانطلق العرب يحملون مشاعل الإسلام إلى العالم وهم يُنْشدون أناشيد الجهاد . وتلت ذلك فتنة عثمان وحروب على وطلحة والزبير وعائشة من جهة وحروب على ومعاوية من جهة ثانية . فعَلَتْ أصوات الشعراء وتصايحوا بأشعارهم فى كل مكان .

ومضى كثيرون ينظمون فى هذا العصر لامع الأحداث ، بل مع أنفسهم وقبائلهم مستضيئين إلى حد كبير بالإسلام وهَدْيه الكريم . فالشعر لم يتوقف ولم يتخلف فى هذا العصر ، وهذا طبيعى لأن من عاشوا فيه كانوا يعيشون من قبله فى الجاهلية وكانوا قد انحلت عُقْدَة لسانهم وعبّروا بالشعر عن عواطفهم ومشاعرهم ، فلما أتمّ الله عليهم نعمة الإسلام ظلوا يصطنعونه وينظمونه . واقرأ فى كتب الأدب والتاريخ مثل الأغانى والطبرى وسيرة ابن هشام وكتب الصحابة مثل الإصابة والاستيعاب فستجد الشعر يسيل على كل لسان ، واقرأ فى

المفضليات والأصمعيات فستجد المفضل الضبي والأصمعي يحتفظان فى كتابيهما بغير مطولة للمخضرمين ، وقد عقد ابن قتيبة فى الشعر والشعراء تراجم لكثيرين منهم ، وسلك ابن سلام فى كتابه « طبقات فحول الشعراء » طائفة من مجوّديهم البارعين .

ومن يرجع إلى كل هذه المصادر يستقر فى نفسه أن الشعر ظل مزدهراً فى صدر الإسلام ، وليس بصحيح أنه توقّف أو ضعف كما ظن ذلك ابن خلدون وتابعه فيه بعض المعاصرين إذ يقول فى مقدمته : « انصرف العرب عن الشعر أول الإسلام بما شغلهم من أمر الدين والنبوة والوحى وما أدهشهم من أسلوب القرآن ونَظْمه فأخرسوا عن ذلك وسكتوا عن الخوض فى النظم والنثر زماناً ، ثم استقرّ ذلك وأونس الرشد من الملة ، ولم ينزل الوحى فى تحريم الشعر وحَظْره وسمعه النبى صلى الله عليه وسلم وأثاب عليه ، فرجعوا حينئذ إلى ديدنهم منه[1] » . وكأنه يجعل توقفهم عن الشعر مدة نزول الوحى لعصر الرسول ، وواضح أن هذا لا يصدق على المشركين لأنهم لم يُشْغَلُوا بالدعوة ، ومعروف أن جمهور القبائل العربية إنما دخل فى الإسلام بعد فتح مكة فى العام الثامن للهجرة . وإذن فانصرافهم عن الشعر — إن صح — إنما كان لمدة عامين أى إلى أن انتقل الرسول صلى الله عليه وسلم إلى الرفيق الأعلى . وهو نفسه ينقض ما قاله فى أول كلامه بما قاله فى آخره من أن الرسول سمع الشعر وأثاب عليه ، ونحن نعرف أنه كان يقف بجانبه ثلاثة من شعراء المدينة ينافحون عنه ويردّون على شعراء مكة وغيرهم من خصومه ذائدين مدافعين ، وهم حسان بن ثابت وكعب بن مالك وعبد الله بن رَواحة . وحتى فى العامين الأخيرين من حياته عامى الوفود كان كل وفد يتقدم ومعه خطباؤه وشعراؤه ، وبمجرد أن يَمْثُلوا بين يديه يتحدث خطباؤهم ويُنْشد شعراؤهم ويردّ عليهم خطباء الرسول صلى الله عليه وسلم وشعراؤه[2] .

ولعل الذى دفع ابن خلدون إلى كلامه السابق ما جاء عند ابن سلاّم وتناقله الرواة بعده من قوله : « فجاء الإسلام وتشاغلتْ عن الشعر العربُ وتشاغلوا

---

(١) مقدمة ابن خلدون ( طبعة المطبعة البهية ) . ص ٤٢٧ .

(٢) أغانى ( طبعة دار الكتب ) ١٤٦/٤ وما بعدها .

بالجهاد وغزو فارس والروم ولهت (العرب) عن الشعر وروايته فلما كثر الإسلام وجاءت الفتوح واطمأنّت العرب بالأمصار راجعوا رواية الشعر ، فلم يؤولوا إلى ديوان مدوّن ولا كتاب مكتوب ، وألفّوا ذلك وقد هلك من العرب من هلك بالموت والقتل ، فحفظوا أقل ذلك وذهب عليهم منه كثير»[١]. وابن سلام إنما يقول ذلك ليدلّ على أن شعراً عربياً كثيراً ضاع من يد الزمن ، وكان يكفيه ما قاله من أنهم لم يدوّنوه وأنهم اكتفوا برواية ، فإن من شأن الرواية إذا طال العهد بها أن لا تحتفظ بكثير من الشعر وأن يسقط منه غير قليل . أما قوله بأن العرب لهت عن الشعر وشُغلت عنه بالجهاد فينقضه ما تحمله كتب الأدب والتاريخ من منظوماته الكثيرة ومن أسماء ناظميه .

وربما جاءت شبهة إصغار العرب للشعر فى صدر الإسلام وإعراضهم عنه من مهاجمة القرآن للشعراء فى قوله تعالى: (والشعراءُ يتّبعهم الغاوون ألم تَر أنهم فى كل واد يهيمون وأنهم يقولون ما لا يفعلون إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وذكروا الله كثيراً وانتصروا من بعد ما ظُلموا ». وواضح من نفس هذه الآيات أن القرآن إنما يهاجم شعراء المشركين الذين كانوا يهجون الرسول ويثبّطون عن دعوته . فالقرآن لم يهاجم الشعر من حيث هو شعر ، وإنما هاجم شعراً بعينه كان يؤذى الله ورسوله ، وهو نفسه الذى قال فيه الرسول الكريم : « لأن يمتلىء جوف أحدكم قَيْحاً خير له من أن يمتلىء شعراً»[٢] أما بعد ذلك فإن الرسول كان يُعْجَبُ بالشعر ويقول حين يسمع بعض روائعه : « إن من البيان لسحراً وإن من الشعر لحُكْماً أو حكمة»[٣] ، وكان يحضُّ حسان بن ثابت وغيره على نظمه ويثيبهم . وكان بعض خصومه ممن توعدهم يتخذه وسيلة إلى استرضائه وعفوه عنه ، على نحو ما هو معروف عن كعب بن زهير الذى أحفظه بأشعار مختلفة ندّد فيها بالإسلام ، ثم قَدِمَ عليه فأنشده لاميته المشهورة يطلب الصفح عن إساءته ، فتهلل وجهه بشراً وخلع عليه بُرْدته[٤] .

---

(١) طبقات فحول الشعراء لابن سلام (طبع دار المعارف) ص ٢٢ .
(٢) العمدة ١/٩ .
(٣) العمدة لابن رشيق (الطبعة الأولى) ١/١٢ .
(٤) أغانى (طبعة الساسى) ١٥/١٤٢ ومابعدها

والحق أن الإسلام لم يردّ العرب عن الشعر ونظمه ، وسنرى عما قليل أن الرسول عليه السلام اتخذه سلاحاً ماضياً ضد خصومه من مشركى قريش وأعداء رسالته ، إذ كان يرى أن وَقْع نبْله عليهم أشد من وقع الحسام[١]. وكان الخلفاء الراشدون من بعده يرددونه دائماً على ألسنتهم[٢] ، كما كان صحابته كثيراً ما يتناشدونه فى المسجد[٣]. وقد اشتهر عمر بن الخطاب بأنه كان كثيراً ما يسأل وفود القبـــائل عن شعرائهم ، وكانوا ينشدونه بعض أشعارهم وقد ينشدها هو متعجباً مستحسنا[٤]، ويقال إنه كتب إلى أبى موسى الأشعرى واليه على البصرة : « مُرْ مَنْ قِبَلَك بتعلم الشعر فإنه يدل على معالى الأخلاق وصواب الرأى ومعرفة الأنساب»[٥]، ويقول ابن سلام إنه « كان لا يكاد يعرض أمر إلا أنشد فيه بيت شعر »[٦] .

وكل ذلك معناه أن الإسلام لم يُثَبِّط عن الشعر إلا حين وقف معارضاً لدعوته ، أما بعد ذلك فقد كان يرتضيه ويستحسنه . وقد مضى الخلفاء الراشدون مهتدين بهدى الإسلام الحنيف ينهون عن الهجاء ويعاقبون فيه ، وقصة عمر بن الخطاب مع الحطيئة معروفة ، فقد حبسه حين أقذع فى هجائه للزِّبْرِقان بن بدر ، ولما استرحمه على أفلاذ كبده بأبياته المشهورة عفا عنه ، بعد أن عاهده على أن لا يعود إلى مثل هذا الهجاء[٧]. واتبع عثمان سنة عمر فى التشديد على من يَسْلقون المسلمين بألسنة حداد ، وقصته مع ضابئ بن الحارث البُرْجمى مشهورة فقد هجا جماعة من الأنصار هجاء مقذعا أفحش فيه ، فاستعدوه عليه فحبسه ، وظل فى حبسه حتى مات[٨] .

---

( ١ ) العمدة ١/١٢ .

( ٢ ) راجع خطبة أبى بكر فى السقيفة وكتاب عثمان إلى على حين حوصر ، وانظر ابن سعد ٦/٥٧ .

( ٣ ) طبقات ابن سعد (طبعة أوربا ) ج١ ق٢ ص ٩٥ – ٩٦ والفائق للزمخشرى ١/٢٥٧ .

( ٤ ) أغانى ( طبعة دار الكتب ) ٨/١٩٩ ، ١٠/٢٨٨ والعقد الفريد (طبعة لجنة التأليف ) ٥/٢٧٠ وخزانة الأدب للبغدادى ٢/٢٩٢ .

( ٥ ) العمدة ١/١٠ .

( ٦ ) البيان والتبيين ١/٢٤١ .

( ٧ ) أغانى ( طبعة دار الكتب ) ٢/١٨٥ .

( ٨ ) ابن سلام ص ١٤٤ وانظر فى ترجمة ضابئ أيضاً الشعر والشعراء ١/٣٠٩ والإصابة ٣/٢٦٧ والخزانة ٤/٨٠ والكامل للمبرد ( طبعة رايت ) ص ٢١٩ .

ولكن هاتين القصتين شيء ونظم العرب للشعر حينذاك وروايته شيء آخر . فقد كانت حريتهم مكفولة فى هذه الرواية وذلك النظم ما لم يتعرضوا للأعراض ، ومن الظلم للإسلام أن يقال إنه كفَّ العرب عن الشعر ووقفَ نشاطه ، فقد كان يُنْشَدُ على كل لسان ، وساعدت الأحداث على ازدهاره لا على خموله سواء فى معركة الإسلام مع الوثنيين والمرتدين أو فى الفتوح أو فى معركة على مع خصومه فى العراق . ولعلنا لا نبالغ إذا قلنا إن الإسلام أذكى جذوته وأشعلها إشعالا ، فإن أحداثه حلَّت من عُقَد الألسنة وأنطقت بالشعر كثيرين لم يكونوا ينطقونه ، فإذا بنا نجد مكة التى لم تُعْرَف فى الجاهلية بشعر كثير يكثر شعراؤها ، وإذا بنا إزاء عشرات من الشعراء فى الفتوح لم يشتهروا بالشعر ونظمه قبلها . وهم يسمون جميعاً مخضرمين من الخضرمة وهى الاختلاط لأنهم خلطوا فى حياتهم بين الجاهلية والإســـلام فعاشوا فى العصرين معاً .

## ٢

## الشعر فى عصر الرسول صلى الله عليه وسلم

مما لا ريب فيه أن شعراء القبائل ظلوا ينظمون شعرهم بالصورة الجاهلية إلى أن دخلوا فى الإسلام ، وكان الموت قد سبق إلى كثيرين منهم ، فماتوا قبل إسلامهم وحرى بهؤلاء أن يدخلوا فى غمار الجاهليين ، فهم ليسوا مخضرمين بالمعنى الصحيح للخضرمة ، ومن ثمَّ كنا نخرج دُرَيْد بن الصِّمَّة والأعشى وأمية ابن أبى الصلت والأسود بن يعْفُر النَّهْشلى وأضرابهم من سِلْك المخضرمين ونظمهم فى سلك الجاهليين ، لأن الموت أدركهم قبل أن يتمَّ الله عليهم نعمة الإسلام .

ومعروف أن قريشاً حادَّت الله ورسوله حين بُعث مما اضطره إلى الهجرة من مكة إلى المدينة ، وسرعان ما نشبت بين البلدتين معركة حامية الوطيس ، تقف فيها قريش ومن يُعينها من العرب فى جانب ، ويقف الرسول صلوات الله عليه ومن هاجروا معه من مكة ومن التفُّوا حوله فى المدينة فى جانب آخر . وبمجرد أن

اشتبكت السيوف أخذ الشعراء فى الجانبين المتناقضين يسلّون ألسنتهم ، ولم تكن مكة فى الجاهلية — كما قدمنا — تُعْرَفُ بشعر إلا بعض مقطوعات تُنْسَبُ لورَقة ابن نوفل وغيره من المتحنّفين ، ومقطوعات أخرى تنسب لبعض فِتْيانها مثل نُبَيْه ومسافر اللذين ترجم لهما أبو الفرج فى أغانيه . فلما نشبت الحرب بينها وبين الرسول لمعت فيها أسماء شعراء كثيرين مثل أبى سفيان بن الحارث وعبد الله بن الزِّبَعْرى وضرار بن الخطاب الفِهْرى وأبى عَزَّة الجمحى وهُبَيْرة بن أبى وهب المخزومى ، وقد أخذوا يسدّدون سهام أشعارهم إلى الرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه من المهاجرين وأنصاره من المدينة . وعزّ ذلك عليه لا لأنهم كانوا يهجونه فحسب ، بل أيضاً لأنهم كانوا يصدُّون عن سبيل الله بما يَذيع من شعرهم فى القبائل العربية ، فقال للأنصار : «ما يمنع القوم الذين نصروا رسول الله بسلاحهم أن ينصروه بألسنتهم ؟ فقال حسّان بن ثابت : أنا لها ، وأخذ بطرف لسانه ، وقال : والله ما يسرُّنى به مِقْوَلٌ بين بُصْرى وصنعاء»[1] وانضم إليه كعب بن مالك وعبد الله بن رواحة ، فاحتدم الهجاء بينهم وبين شعراء مكة . واقرأ فى سيرة ابن هشام فستجده ينقل عن ابن إسحق عقب كل موقعة حربية ما قيل فيها من شعر ، تجد ذلك عقب غزوة بدر فى السنة الثانية للهجرة وعقب غزوة أحد فى السنة الثالثة وغزوة الخندق فى السنة الخامسة كما تجد أطرافاً من ذلك فى فتح مكة للسنة الثامنة .

على أنه ينبغى أن نشك فى كثير من هذه الأشعار لأن ابن إسحق — كما يقول ابن سلام — كان يَحْمل كل غُثاء من الشعر حتى أفسده وهجّنه[2] ، ونرى ابن سلام يقول فى ترجمته لأبى سفيان بن الحارث : «لسنا نعدّ ما يَرْوى ابن إسحق له ولا لغيره شعراً ، ولأنْ لا يكون لهم شعر أحسن من أن يكون ذاك لهم»[3] . على أن ابن سلام نفسه يُثْبت لأبى سفيان بن الحارث قصيدة كافية ناقض بها فى يوم أحد كافيةً كان قد نظمها حسان بعد وقعة بدر[4] ، وقد

---

(١) أغانى ٤/١٣٧ .
(٢) ابن سلام ص ٨ .
(٣) ابن سلام ص ٢٠٦ .
(٤) ابن سلام ص ٢٠٧ وما بعدها .

أثبت لابن الزِّبَعْرى قصيدته التى قالها فى نفس اليوم[١]، والتى يقول فيها :

ليت أشياخى ببدر شهدوا ضَجَرَ الخَزْرَجِ من وَقْعِ الأَسَلْ[٢]
حين ألقتْ بقُبـاء بَرْكَهَا واستحرَّ القتلُ فى عبد الأَشَلّ[٣]
فقبلنا النِّصْفَ من سادتهم وعَـدَلْنا مَيْلَ بَدْر فاعتدل[٤]

وأيضاً فإنه أثبت لأبى عَزَّة ميمية يحرِّض فيها بنى كنانة[٥] ، وقال عن هبيرة بن أبى وهب : إنه كان شديد العداوة لله ولرسوله ، وهو الذى يقول فى يوم أحُد[٦] :

قُدْنا كنانةَ من أكنافِ ذى يَمَن عَرْضَ البلاد على ما كان يُزْجيها[٧]
قالت كنانةُ : أنّى تذهبون بنا قلنا : النَّخيلَ ، فأمُّوها وما فيها[٨]

وكان فى الطرف المقابل حسان وكعب وابن رواحة ، وحسان أشعر الثلاثة ، يقول ابن سلام : « وهو كثير الشعر جيده » ، ويقال إن أول ما جرى به لسانه حين سلَّه على قريش هذه الأبيات يتحدَّى بها أبا سفيان بن الحارث[٩] :

هجوتَ محمدًا فأجبتُ عنه وعند الله فى ذاك الجَـزَاءُ
فإن أبى ووالده وعِرْضِى لِعِرْضِ محمدٍ منكم وِقاءُ
أتهجوه ولستَ له بكفْءٍ فشَرُّكما لخيركما الفِـدَاءُ

---

(١) ابن سلام ص ١٩٨ وما بعدها .
(٢) أشياخه ببدر : من قتلوا بها من مشركى قريش . الأسل : الرماح .
(٣) قباء : موضع بضواحى المدينة . ألقت الحرب بركها : حمى وطيسها . استحر القتل : اشتد وكثر .
(٤) قبلنا النصف : انتصفنا بمن قتلناه منهم لقتلى بدر .
(٥) ابن سلام ص٢١٣ .
(٦) ابن سلام ص ٢١٥ .
(٧) الأكناف : النواحى . ذو يمن : موضع قريب من مكة . يزجى : يسوق ويدفع .
(٨) يريد بالنخيل المدينة لكثرته فيها . أموها : قصدوها .
(٩) أغانى ١٣٩/٤ والاستيعاب لابن عبد البر ص ١٢٩ .

ويقول ابن سلام : « وكعب شاعر مجيد ، قال يوم أحُد فى كلمة :

فجئْنا إلى موجٍ من البحر وَسْطه ... أحابيشُ منهم حاسِرٌ ومقنَّعُ[١]
ثلاثةُ آلافٍ ونحن نَصِيَّةٌ ... ثلاثُ مئين إن كثُرنا وأربع[٢]
فراحــوا سراعاً مُوجِفين كأنهم ... جَهَامٌ هَرَاقتْ ماءهُ الرِّيحُ مُقْلِعُ[٣]
ورُحْنــا وأُخْرَانا بِطاءٌ كأننا ... أسودٌ على لَحْمٍ ببِيشَةَ ظُلَّعُ[٤]

وقال فى أيام الخندق :

مَنْ سَرَّهُ ضَرْبٌ يُرَعْبِلُ بَعْضُهُ ... بعضاً كمَعْمَعَةِ الأُباء المُحْرَقِ[٥]
فَلْيَأْتِ مأْسدةَ تُسَلُّ سيوفُهــا ... بين المذادِ وبين جِزْعِ الخَنْدَقِ[٦]

ووقف ابن سلام عند ابن رواحة وتحدث عن حُسْن إسلامه وأنه كان أحد الأمراء الثلاثة الذين قتلوا يوم مُؤْتة وأثبت له من هجائه لقريش قوله[٧] :

نجالدُ الناسَ عن عُرْضٍ فَنأْسرهم ... فينا النبيُّ وفينا تنزل السُّوَرُ[٨]
وقــد علمتم بأنا ليس غالبَنا ... حَيٌّ من الناس إن عَزُّوا وإن كثُروا
يا هاشمَ الخيرِ إن الله فضَّلكم ... على البَرِيَّةِ فَضْلاً ماله غِيَرُ[٩]
فثبَّت اللهُ ما آتاك من حَسَنٍ ... تثبيت موسى ونَصْراً كالذى نُصِروا[١٠]

---

(١) أحابيش قريش : حلف منهم تحالفوا عند جبل يسمى حبشيا. الحاسر : الذى لا بيضة له عكس المقنع .
(٢) النصية : الخيار والأشراف .
(٣) موجفين : مسرعين . الجهام : السحاب أفرغ ماءه .
(٤) بيشة : مسبعة فى واد كثير الشجر . ظلع : من الظلع وهو العرج. يكنى بذلك عن سيرهم البطىء المطمئن .
(٥) يرعبل : يمزق . المعمعة : صوت لهب النار فى القصب . الأباء : أجمة القصب . يصف أصوات المعركة .
(٦) أرض مأسدة : كثيرة الأسود . المذاد : موضع بالمدينة . جزع الخندق : منعطفه .
(٧) ابن سلام ص ١٨٨ .
(٨) عن عرض : عن ناحية ، يريد أنهم لا يبالون من يضربون .
(٩) غير : تغيير .
(١٠) يقصد الرسل .

وفى الأغانى أن حساناً وكعباً «كانا يعارضان شعراء قريش بمثل قولهم بالوقائع والأيام والمآثر ويعيّرانهم بالمثالب، وكان عبد الله بن رواحة يعيّرهم بالكفر ، فكان فى ذلك الزمان أشدّ القول عليهم قولُ حسان وكعب وأهون القول عليهم قول ابن رواحة ، فلما أسلموا وفقهوا الإسلام كان أشد القول عليهم قول ابن رواحة»[1] . ومن المؤكد أن حساناً وكعباً كانا يرميان قريشاً عن بصيرة حين غلبتْ على هجائهما صورةُ الهجاء القديمة ، لأنها هى التى كانت تؤذى نفوس القرشيين المكيّين ولو أنهما رمياهم بالشرك وعبادة الأوثان لما نالا منهم ، إذ كانت تلك عقيدتهم وكانوا يعتزّون بها ، ومن ثم اتجه حسان وكعب هذه الوجهة، فطعنا فى الأحساب والأنساب ، وعيّرا سادتهم وفرسانهم بالفرار من الحرب وتوعداهم بالبلاء المستطير . وطبيعى لذلك أن لا نجد عندهما تأثراً واضحاً بمثالية القرآن الكريم فى ذم المشركين ، إذ نراه خالياً من الشتم والسباب والطعن فى الأعراض والأحساب ، وأيضاً فإنه لا يتوعد المشركين بحرب مُبيرة تأتى على الشيب والشبان ، إنما يتوعدهم بالنار ، ومع ذلك يفتح الأبواب واسعة لرحمة الله وغفرانه وتوبته على المشركين الذين يثوبون إلى عقولهم ويدخلون فى دينه الحنيف .

وكان يَشْرَكُ شعراء قريش فى التأليب على رسول الله وأنصاره وأصحابه نفر من شعراء اليهود نكثوا ما عاهدوه من الموادعة وحقوق الجوار[2] وأخذوا يهجونه هو والمسلمين ويحذّلون عنه قريشاً والعرب ، يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله إلا أن يُتِمّ نوره ولو كره الكافرون. وكان من رءوسهم فى هذا الفساد كعب بن الأشرف[3] ، وقد بلغ من سوء فعله أنْ كان يشبّب بنساء الرسول ونساء المسلمين ، مما جعل محمد بن مسلمة يقتله فى رهط من الأنصار[4] . غير أن اليهود لم يرتدعوا وأخذوا يعملون سرًّا وجهراً على تقويض الدعوة المحمدية ، فاضطر الرسول إلى إجلائهم عن المدينة ، حتى إذا انتهينا إلى خلافة عمر رأيناه ببصيرته النافذة يأمر بإجلائهم عن الجزيرة .

---

(١) أغانى ٤/١٣٨ .

(٢) السيرة النبوية ( طبع الحلبى ) ٢/١٤٧ .

(٣) أغانى ( طبعة الساسى ) ١٩/١٠٦ .

(٤) ابن سلام ص ٢٣٨ والسيرة النبوية ٣/٤٥ وما بعدها .

وكان كثير من شعراء العرب يقفون مع قريش باكين قتلاها ومحرّضين لها على كفاحها ضد الرسول مثل أمية بن أبي الصلت، ورثاؤه لقتلى بدر مشهور[١] ومثل الأسود بن يَعْفر الذى أشاد بانتصارها فى يوم أحد[٢] ، وقد ماتا فى أثناء هذا الصراع . وكان يقف هذا الموقف نفر من شعراء القبائل التى لما تدخل فى الإسلام . وكان يرد عليهم جميعاً شعراء المدينة متوعدين مهددين على شاكلة قول كعب بن مالك يهدد ثقيفاً بعد انتصار الرسول صلى الله عليه وسلم على يهود خيبر[٣] :

قَضَيْنَا من تِهامةَ كلَّ وِتْرٍ ... وخَيْبَرَ ثم أحجمْنا السيوفا[٤]
نخيِّرها ولو نطقتْ لقالتْ ... قَوَاطِعُهُنَّ : دَوْساً أو ثَقِيفا[٥]
فلستُ لحاصنٍ إن لم تروها ... بساحة داركم منا أُلُوفَا[٦]
فننتزعَ العروش بَبَطْنِ وَجٍّ ... ونترك داركم منا خُلوفا[٧]
ونُرْدِى اللَّات والعُزَّى ووَدًّا ... ونَسْلُبَها القلائد والشُّنُوفا[٨]

وتُفْتَحُ مكة فى السنة الثامنة للهجرة، ولكن تظل للصراع بقية فى شعراء هُذَيْل، على نحو ما يمثلهم أبو خراش الهُذَلى فى بكائه لدُبَيَّة سادن العُزَّى حين قتله خالد بن الوليد[٩]. وتظل بقية أخرى فى ثقيف ومعاركها مع الرسول فى حُنَيْن . على أنه بمجرد أن دخلت مكة فى الإسلام أُدمجت الجزيرة كلها فيه، وأخذت وفودها تفد على الرسول معلنة اعتناقها الدينَ الحنيف. وفى هذه الأثناء نجد كثيراً من الشعراء وعلى رأسهم شعراء قريش يفزعون إلى ساحة الرسول الكريم

---

(١) ابن سلام ص ٢٢١ والسيرة النبوية ٣/٣١.
(٢) ابن سلام ص ١٢٣ .
(٣) ابن سلام ص ١٨٤ .
(٤) الوتر : الثأر .
(٥) دوس وثقيف : قبيلتان كانتا تنزلان بالطائف .
(٦) الحاصن : المرأة العفيفة .
(٧) يقصد بالعروش قضبان الكرم . وج : الطائف ونواحيها . والخلوف : الذى فارقه الرجال، يقصد أنهم سيبيدونهم .
(٨) نردى : نهدم . اللات والعزى وود : أصنام . القلائد : السموط . الشنوف : جمع شنف وهو القرط .
(٩) ديوان الهذليين (طبعة دار الكتب) ٢/١٤٨ وانظر الأصنام لابن الكلبى ص ٢٤ وما بعدها .

يطلبون عفوه ، وقصةُ كعب بن زهير مشهورة ، وقد مرت بنا الإشارة إليه ، ومثله أنس بن زنيم ، فإنه كان هجا الرسول ، ثم ثاب إلى رشده ، فقدم عليه معتذراً، وأنشده أبياتاً مدحه بها ، يقول فى تضاعيفها[١] :

وما حملتْ من ناقةٍ فوق رَحْلها أبرَّ وأوفى ذِمَّةً من محمَّدِ

ونَظم أبو سفيان بن الحارث أشعاراً كثيرة يأسَى فيها على مافرَّط فى جَنْب الله ورسوله على شاكلة قوله [٢] :

لعمْرُك إنى يوم أحمل رايةً لتغلبَ خَيْلُ اللَّات خَيْلَ محمدِ
لكالمُدْلجِ الحَيْران أظلم ليلــه فهذا أوانُ حين أهدِى وأهتدى

وكان كثير من الشعراء المسلمين يمتدح الرسول وهديه الكريم ، يتقدمهم فى ذلك شعراء المدينة ، وتُنْسَبُ إلى الأعشى قصيدة فى مديحه[٣] لا شك أنها منحولة ، وتُنْسَب لأبى طالب قصيدة مدحه بها يقول فيها :

وأبيضَ يُسْتَسْقَى الغمامُ بوجهه ربيعُ اليتامى عِصْمةٌ للأرامل

ويقول ابن سلام: «قد زيد فيها وطُوِّلت»[٤] وتُنْسَبُ إلى عباس بن مرداس فارس بنى سُلَيْم أشعار كثيرة يمدحه بها من مثل قوله [٥] :

نبيٌّ أتانا بعد عيسى بنــاطقٍ من الحق فيه الفَصْلُ منه كذلكا
أميناً على الفُرْقان أول شافعٍ وآخــر مبعوثٍ يجيب الملائكا

ونُظم كثير من المراثى فى قتلى المسلمين والمشركين ، ورثاءُ قُتَيْلة لأبيها النَّضْر بن الحارث ذائع مشهور. ولما انتقل الرسول إلى الرفيق الأعلى بكاه الشعراء بكاء حاراً ، ومن أرق ما رُثِّى به قصيدة حسان التى يستهلها بقوله[٦] :

ما بالُ عينى لا تنام كأنما كُحِلَتْ مآقيها بكُحْل الأَرْمَدِ

---

(١) الإصابة لابن حجر ١/٦٩ .
(٢) ابن سلام ص ٢٠٦ .
(٣) أغانى ( طبعة دار الكتب ) ٩/١٢٥ .
(٤) ابن سلام ص ٢٠٤ .
(٥) أغانى ( طبعة دار الكتب ) ١٤/٣٠٥ .
(٦) ديوان حسان ( طبعة هرشفيلد ) ص٥٨ .

وأكبر الظن أنه اتضح كيف أن الشعر فى حياة الرسول صلى الله عليه وسلم كان يجرى على كل لسان ، ويكفى أن نرجع إلى سيرة ابن هشام فسنرى سيوله تتدافع من كل جانب ، وحقاً فيها شعر موضوع كثير ، ولكن حينما يُصَفَّى وحين نقابل عليه ما ارتضاه ابن سلام وغيره من الرواة الموثوق بهم نجدنا إزاء ملحمة ضخمة تعاون فى صنعها عشرات من الشعراء والشاعرات .

## ٣

### الشعر فى عصر الخلفاء الراشدين

تَمَّت أضواء الإسلام فى الجزيرة العربية كلها منذ السنة التاسعة للهجرة ، فقد أُعْلِن فى الحج لهذه السنة أنه من شعائر الإسلام وأن الجزيرة دار المسلمين ، وبذلك قُضِى على الوثنية فى أنحائها قضاء مبرماً من جهة ، وأصبح الإسلام والعروبة شيئاً واحداً من جهة ثانية ، وهذا هو السر فى نشوء نظام الولاء حين فُتحت البلاد الأجنبية ، فإنه كان حتماً على من يسلم أن يلتحق بقبيلة عربية ويصبح كأنه فرد من أفرادها .

ولم يكد يتسلَّم أبو بكر الصديق مقاليد الخلافة حتى طغت على الجزيرة موجة حادة من الردة ، إذ امتنع كثير من العرب عن أداء الزكاة على شاتهم وبعيرهم ، فاستشار الصدِّيق كبار الصحابة فيما يصنع ، فكلهم قالوا : إنه لا طاقة لنا بقتال العرب جميعاً ، فقال : « والله لأن أخِرَّ من السماء فتخطفنى الطير أحبُّ إلى من أن يكون رأيى هذا » ثم صعد المنبر فخطب الناس خطبة مشهورة قال فيها : « والله لو منعونى عِقالا لجاهدتهم عليه » ثم نزل فوجَّه الجيوش إليهم بقيادة خالدبن الوليد وغيره . وكانت قبيلة أسد قد تجمعت حول متنبئ ظهر فيها يسمى طليحة بن خويلد ، وانضمت إليها غطفان . وعبثا حاول من حَسُنَ إسلامهم فى القبيلتين أن يردوهما عن غيِّهما ، ولم يلبث أن التقى بهما خالد عند بئر بُزَاخة ، فنكَّل بهما تنكيلا شديداً ، استسلمتا على إثره . واتجه خالد توًّا إلى تميم ومتنبئتها سَجاح فلم تلبث بعد مناوشات صغيرة أن أذعنت له ،

وقُتل حينئذ مالك بن نُوَيْرة سيد بنى يربوع ، ولأخيه متمم فيه مراث رائعة[١] . واتجه خالد بجيوشه نحو بنى حنيفة فى اليمامة ومتنبئها مُسَيْلمة ، فالتقى بها فى « عقربة » ونشبت بين الطرفين معارك حادة استحرّ فيها القتل ، غير أن الدوائر لم تلبث أن دارت على بنى حنيفة ، فسقط متنبئها فى ميدان المعارك ، وأعلنت استسلامها . وكان ذلك نصراً مؤزراً لدين الله ، وسرعان ما دانت «البحرين» بالطاعة ، واتجهت أسراب من هذه الجيوش إلى حضرموت ونجران واليمن ، حيث التفّ الناس هناك حول متنبئ يسمى الأسود العنسى ومتنبئ آخر يسمى قيس بن عبد يغوث ، ولم تلبث كل هذه الأنحاء أن استسلمت .

وإذا كانت معركة الشرك لعهد الرسول صلى الله عليه وسلم قد خلّفت ملحمة كبيرة فإن معركة الردة هى الأخرى قد خلّفت أشعاراً كثيرة ، بعضها كان إنذاراً وتخويفاً ووعظاً من مثل قول الحارث بن مرة فى وعظه لبنى عامر[٢] :

بنى عامرٍ إن تَنْصُرُوا الله تُنْصَرُوا ... وإن تَنْصبوا لله والدين تُخْذَلُوا
وإن تُهْزَموا لا يُنْجكمْ منه مهربٌ ... وإن تثبتوا للقوم والله تُقْتَلُوا

وبعضها كان حماسة دينية يهتف بها المحاربون من المسلمين من مثل قول أوس بن بُجَيْر الطائى فى موقعة بُزاخة[٣] :

وليتَ أبا بكرٍ يرى من سيوفنـا ... وما تَخْتلى من أذْرُعٍ ورقابِ[٤]
ألم تر أن الله لا ربَّ غـيره ... يصبُّ على الكفار سَوْط عذابِ

وللمرتدين أشعار مختلفة يستثيرون بها العزائم[٥] .

---

(١) انظر فى متمم ورثائه لأخيه الأغانى (طبعة الساسى) ١٤/٦٣ والشعر والشعراء (طبع دار المعارف) ١/٢٩٦ والخزانة ١/٢٣٤ ومعجم الشعراء للمرزبانى (طبعة الحلبى) ص ٤٣٢ والمفضليات (طبع دار المعارف) ص ٢٦٣ ، ٢٧١ .

(٢) الإصابة لابن حجر ٢/٥٥ وراجع فى أشعار أخرى الإصابة ١/٢٧٤ ، ٢/٣ ، ٢/١٥٢ ، ٥/١٢٢ .

(٣) الإصابة ٢/٥٥ .

(٤) تختلى : تقطع .

(٥) تاريخ الطبرى ٢/٤٩٤ والإصابة ٣/١٢٥ .

ورُئِبَ الصَّدْع وعاد الحق إلى نصابه، فرأى أبو بكر بثاقب بصيرته أن يدفع العرب إلى خارج جزيرتهم كى ينشروا الإسلام فى آفاق الأرض ، فاندفعوا جميعاً يجاهدون فى سبيل الله ويبتغون رضوانه ، وسرعان ما سقطت الحيرة وجنوبى العراق أمام جيوش المثنى بن حارثة وخالد بن الوليد ، وجهز أبو بكر جيشين لغزو الشام ، أحدهما بقيادة عمرو بن العاص والآخر بقيادة يزيد بن أبى سفيان وشرحبيل بن حسنة ، وانتصر الجيشان فى فلسطين . ولم يلبث أن أمدهما أبو بكر بخالد بن الوليد ، وجعل له إمارة الجيوش ، فانتصر على أرطبون فى موقعة أجنادين كما انتصر فى موقعة اليرموك ، وهو رافد من روافد نهر الأردن ، وحاصر دمشق ، واستطاعت جماعات من جيوشه أن تستولى على حمص . ويتوفَّى أبو بكر فى السنة الثالثة عشرة للهجرة قرير العين بما أدى لله ولرسوله ، وكان آخر ما تكلم به « رَبِّ توفَّنى مسلماً وألحقنى بالصالحين »[1]، وبكاه كثير من الشعراء[2] ومن خير ما قيل فيه قول حسان بن ثابت[3] :

إذا تذكرتَ شَجْوًا من أخى ثقةٍ ... فاذكرْ أخاك أبا بكرٍ بما فعلا

التالىَ الثانىَ المحمودَ سيرتَه ... وأوَّلَ الناس منهم صدَّق الرسلا

وثانىَ اثنين فى الغار المُنيف وقد ... طاف العدوّ به إذ صعَّد الجَبلا

وكان حِبَّ رسولِ الله قد علموا ... خَيْرِ البريَّة لم يعْدل به رجلا

وأوصى أبو بكر من بعده بالخلافة لعمر بن الخطاب ، فسار بأحسن سيرة مقتدياً بهدى الله ورسوله وخليفته الصديق ، لا يخاف فى الحق لومة لائم . وهو أول من دوَّن الدواوين ورتَّب الناس فيها على سوابقهم، وأول من رتَّب التاريخ العربى وجعله من الهجرة ، وأول من تلقب بأمير المؤمنين . وفتح الله له الفتوح ، وكان من أول أمره فى ذلك أن عزل خالد بن الوليد عن إمارة الجيوش فى الشام وولَّى أبا عبيدة بن الجراح مكانه ، فأتمَّ بعاونه خالد فتوح الشام ، وانطلق عمرو بن العاص بجيشه ففتح مصر . أما فى الشرق فكانت المعركة

---

(١) الطبرى ٢/٦١٥ .

(٢) الطبرى ٢/٦١٧ والاستيعاب ص ٣٤٢ .

(٣) ديوان حسان ص ٢٩ والبيان والتبيين ٣/٣٦٢ .

حامية الوطيس . وقد أمدّ عمر المثنى بن حارثة بجنود يقودها أبو عبيد الثقفى ، ونشبت سلسلة من الوقائع عند قُسّ الناطف والبويب انتصر فيها المسلمون ، وبينما كان الفرس يستعدون لمعركة أخيرة هى معركة القادسية توفّى المثنى فخلفه فى قيادة الجيوش سعد بن أبى وقاص ، ومُنى الفرس بهزيمة شديدة ، وقُتل قائدهم رستم فى المعركة. وتقدم سعد إلى عاصمتهم المدائن فاستولى عليها . ولم يلبث الفرس أن تجمعوا فى جلولاء شرقى دجلة ، ولكنهم هزموا هزيمة ساحقة . وانسحب يزدجرد ملك الفرس إلى إيران وتبعته الجيوش الإسلامية بقيادة النعمان ابن مقرّن وتوفى فخلفه حذيفة بن اليمان . ولم تلبث هذه الجيوش أن استولت على نهاوند ثم أصفهان ثم إصطخر ، وعاش يزدجرد طريداً ، حتى أرسل إليه عامل خراسان لعهد عثمان مَنْ قتله فى مخبئه الأخير .

وتلقانا فى كل موقعة حربية شرقاً وغرباً أشعار حماسية كثيرة ، سنعرض لها عما قليل ، ويخيَّل إلى الإنسان كأنما الجزيرة كلها قد تحولت جيشاً يجاهد فى سبيل الله ونشر الإسلام ، فقد أحسّ العرب فى عمق أن عليهم أن ينشروا الدين الحنيف فى أنحاء الأرض . ومن غير شك كان المتخلفون من الشيوخ والنساء وغيرهما يحسون ألماً عميقاً لفراق ذويهم ، على نحو ما يصور لنا ذلك البُرَيْق بن عياض الهذلى ، إذ يقول (١) :

وإن أمْسِ شيخًا بالرجيع وولْدَةً ... وتصبحُ قومى دون دارهمُ مِصْر (٢)
أسائلُ عنهم كلما جاء راكبٌ ... مقيما بأمْلاحٍ كما رُبِط اليَعْرُ (٣)
فما كنت أخشى أن أقيم خلافهم ... بستة أبيات كما نَبتَ العِتْرُ (٤)

وكان عمر ينْهَى من لهم آباء شيوخ يعولونهم عن الهجرة برًّا بهم ، ويُرْوَى أن المخبَّل السعدى جزع جزعا شديداً حين هاجر ابنه شيبان لحرب الفرس مع سعد بن أبى وقاص ، وكان قد أسنّ وضعف ، فافتقد ابنه فلم يملك الصبر عنه ، ومضى إلى عمر فأنشده أبياتاً يقول فيها :

---

(١) ديوان الهذليين (طبعة دار الكتب) ٣/٥٨ وانظر أيضاً ٢/١٩٧ ، ٢/١٩٩ حيث تجد لأسامة بن الحارث أشعاراً مماثلة .

(٢) الرجيع : موضع . ولدة : صبية .

(٣) أملاح : موضع . اليعر : الجدى الكبير .

(٤) العتر : شجر له ورق صغار . خلافهم : بعدهم .

إذا قال صحبي يا ربيعُ ألا ترى؟ أرى الشخص كالشخصين وهو قريب
ويخبرنى شيبان أن ان يعقّنى تعقُّ إذا فارقتنى وتَحُوبُ[١]

فرقّ له عمر ، وكتب إلى سعد يأمره أن يرد شيبان إلى أبيه فردّه إليه ولم يزل عنده حتى مات[٢]. وليس المخبّل وحده الذى فزع إليه يشكو هجرة ابنه ، فقد فزع إليه أيضاً أمية بن حُرْثان بن الأسْكر حين هاجر ابنه كلاب إلى حرب الفرس ، وكان مما أنشده فيه :

لمن شيخان قد نشَدا كلابا كتابَ الله إن حَفِظَ الكتابا[٣]
إذا هتفتْ حمامةُ بَطْنِ وَجٍّ على بَيْضاتها ذكرَا كلابا
تركتَ أباك مُرْعَشَةً يداه وأُمَّك مـا تُسيغ لها شرابا

فأمر بإشخاصه إليه[٤]. وممن فزع إلى عمر أيضاً فى ذلك أبو خراش الهذلى حين هاجر ابنه مع المجاهدين إلى الشام ، وقد أنشده شعراً مؤثراً ، فأمر برده عليه وأن لا يغزو من له أبٌ هرم إلا بعد أن يأذن له راضياً بهجرته[٥] .

ولعل فى هذا كله ما يصور كيف كان يترامى شباب العرب على الجهاد فى سبيل الله ، ومع هذا يأبى المستشرقون إلا أن يجعلوا تلك الفتوح الرائعة ابتغاء الدنيا والغنائم[٦] لا ابتغاء الله وثواب الآخرة ، وربما كان من خير ما يرد عليهم قول النابغة الجعدى لامرأته ، وقد أظهرت تأثرها لهجرته فى فتوح فارس[٧]:

يا ابنةَ عمى كتابُ الله أخرجنى طوعاً وهل أمنعنَّ الله ما فعلا
فإن رجعتُ فربَّ الناس يرجعنى وإن لحقتُ بربِّى فابتغى بدلا
ما كنت أعرجَ أو أعمى فيعذرَنى أو ضارعاً من ضَنًى لم يستطع حِوَلا[٨]

---

(١) تحوب : تأثم .
(٢) أغانى ( طبعة دار الكتب ) ١٣/١٩٠ .
(٣) يقصد ما فى كتاب الله من رعاية الآباء والبر بهم .
(٤) ابن سلام ص١٦٠ والخزانة ٢/٥٠٥ .
(٥) أغانى ( ساسى ) ٢١/٦٩ وديوان الهذليين ٢/١٧٠ وانظر فى حالات مشابهة الأمالى ٢/٣٠٩ وذيله ص ١٠٩ .
(٦) راجع تاريخ الدولة العربية لفلهوزن ( طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر ) ص٢٥ والعقيدة والشريعة لجولد تسيهر ص ١٣٧ .
(٧) الشعر والشعراء ١/٢٥١ وقد ظلت هذه الروح مسيطرة على الفاتحين فى العصر الأموى ، انظر الطبرى ٥/٤١٣ .
(٨) ضارعا : ضاويا نحيلا . ضنى : مرض .

وكان عمر من وراء هذه الجيوش مثالا رائعاً للعدل والتقوى والزهد فى الدنيا . وما زال يسوس العرب سياسة مثالية ، حتى امتدت إلى جسده الطاهر يد أبى لؤلؤة المجوسى الآثمة فى الظلام ، فطعنته بخنجر مسموم طعنات لأربع ليال بقين من ذى الحجة سنة ثلاث وعشرين للهجرة ، ولم يلبث أن توفى بين بكاء المسلمين وتشييعهم ، ومن رائع ما قيل فيه من رثاء قول جزء بن ضرار أخى الشماخ[1] :

جَزَى اللهُ خيرًا من أميرٍ وباركتْ ... يَدُ اللهِ فى ذاك الأديم المُمزَّقِ[2]
فمن يَسْعَ أو يركبْ جناحَىْ نعامةٍ ... ليُدْرِك ما حاولتَ بالأمسِ يُسْبَق
قضيتَ أمورا ثم غادرتَ بعدها ... بَوائقَ فى أكمامها لم تفتَّقِ[3]

وكان عمر وهو على فراش الموت قد جعل الخلافة شورى فى ستة من أصحاب رسول الله توفى وهو عنهم راض ، وكانوا من المهاجرين الأولين ، وهم عثمان بن عفان وعبد الرحمن بن عوف وعلى بن أبى طالب وطلحة بن عبيد الله والزبير بن العوام وسعد بن أبى وقاص . ووقع اختيارهم على عثمان ، فمضى ينفذ سياسة عمر فى إتمام فتح إيران وإفريقية ، وأقرّ معاوية بن أبى سفيان على الشام ، إلا أنه عزل عمرو بن العاص عن مصر وولاّها عبد الله بن سعد بن أبى سرح ، ففتح إفريقية . وما نصل إلى سنة أربع وثلاثين للهجرة حتى تندلع ثورة عنيفة على عثمان فى الكوفة يقودها الأشتر النخعى وفى مصر يقودها محمد بن أبى حذيفة ومحمد بن أبى بكر الصديق . وكان من أهم أسباب هذه الثورة ضعف عثمان ، إذ كان شيخاً كبيراً ، واستسلامه لأهل بيته من الأمويين وتوليته لهم كثيراً من الأعمال ، مما أحفظ عليه كبار الصحابة وملأهم موجدة . وكانت هناك أسباب وراء ذلك ، فإن عمر رأى أن يترك للجيش خُمُس الغنائم وأن تستأثر الدولة بالفَىْء وهو الأرض الثابتة ، ومعروف أنها تُركت لأصحابها على أن يؤدوا عنها إتاوة عادلة وأن يؤدوا الجزية إن لم يُسْلموا نظير حماية الجيش لهم وإعفائهم من

---

(١) ابن سلام ص ١١١ والأغانى ٩/١٥٩ والبيان والتبيين ٣/٣٦٤ .
(٢) الأديم : الجلد .
(٣) البوائق : الدواهى . تفتق : تنشق عن ثمرها . والاستعارة واضحة .

الواجبات العسكرية ، وكان كثير من المحاربين يرون أن يَشْركوا الدولة فى الفيء ، ولكن صوتهم لم يرتفع فى عهد عمر لقوة شخصيته ، حتى إذا كان عهد عثمان بدأ التذمر يشتد ، وتطورت الظروف ، فاشتعلت الثورة عليه اشتعالا أدّى إلى قتله فى ذى الحجة سنة خمس وثلاثين للهجرة ، وبكاه كثير من شعراء الصحابة[1] ، من ذلك قول أيمن بن خُرَيم[2] :

ضحّوا بعثمان فى الشهر الحرام ضُحًى ... وأىُّ ذَبْحٍ حرامٍ لهمُ ذبحوا

إن الذين تولّوا قتله سَفَهاً ... لاقوا أثاماً وخُسْرانًا فما ربحوا

ماذا أرادوا أضلَّ الله سَعْيَهُمُ ... بسَفْحهم للدَّم الزَّاكى الذى سَفحوا

وكان علىٌّ يُعَدُّ أكبر الشخصيات بين المهاجرين ، فبايعه الثوار وبايعته المدينة ، ولكن هذه البيعة لم تُرْض طلحة والزبير وانضمت إليهما السيدة عائشة أم المؤمنين ، فأعلنوا سخطهم ، وولوا وجوههم نحو البصرة مستنفرين الناس ضده ، وتبعهم على ، فنزل فى الكوفة ، ولم تلبث الحرب أن نشبت بين الفريقين ، وسرعان ما انتصر على فى موقعة الجَمل المشهورة ، وقُتِل طلحة والزبير وانسحبت عائشة إلى المدينة . وكان علىٌّ قد عزل معاوية ابن عم عثمان ووالیه على الشام ، فلم يصدع لأمره واعتبر نفسه ولىَّ دم عثمان ، فجهز الجيوش لحربه وانضم إلى معاوية عمرو بن العاص وكثير من قريش . وسار إليه علىٌّ بجموعه ، فالتقوا على الحدود العراقية السورية فى صِفّين الواقعة على الضفة اليمنى للفرات ، واحتدمت معركة عنيفة كاد فيها النصر أن يُكْتَبَ لعلىّ ، غير أن معاوية عمد — بمشورة عمرو بن العاص — إلى الحيلة ، إذ جعل طائفة من جنوده تَرْفع المصاحف على أسنَّة رماحها طالبة الاحتكام إلى القرآن ووَقْف هذه الحرب المبيرة للمسلمين ، وتنبه علىٌّ للحيلة غير أن كثرة جيشه أجبرته على وَقْف القتال والدخول مع معاوية فى مفاوضات . واتفق الفريقان على اختيار حكمين ، هما عمرو بن العاص عن معاوية وأبى موسى الأشعرى عن على ليحكما بينهما على أساس من القرآن . واستطاع عمرو أن يُقْنع أبا موسى بخلع على ومعاوية

(١) انظر الاستيعاب ص ٤٩٢ والكامل ٣/٤٤٧ وما بعدها .

(٢) المبرد ص ٤٤٥ والاستيعاب ص ٤٩٣ . المبرد ( طبعة رايت ) ص ٤٤٤–٤٤٥ والطبرى

معاً . ولم يلبث مركز علىَ أن تزعزع فى العراق فإن طائفة كبيرة من جيشه كانت قد أسرعت منذ قبوله التحكيم إلى الخروج عليه ، واتخذت معسكراً لها فى حَرُوراء بالقرب من الكوفة وبايعت عبد الله بن وهب الراسبى بالخلافة . فلما ظهرت نتيجة التحكيم انضم إليها كثير من أتباع على . وعبثاً حاول إقناعهم بخطئهم ، ولم ير أخيراً بداً من حربهم ، فالتقى بهم عند مصب قناة النَّهْروان فى دجلة وهزمهم هزيمة ساحقة ، إلا أن بقية منهم نجت ، وكان منهم عبد الرحمن ابن ملجم الذى تحيَّن منه فرصة ، وقتله غيلةً ليلة الجمعة لثلاث عشرة خلت من رمضان سنة أربعين للهجرة ، وقد بكاه كثير من أصحابه[١] ، وعلى رأسهم أبو الأسود الدؤلى إذ يقول[٢] :

أفى شهر الصيام فجعتمونا ... بخير الناس طُرًّا أجمعينـــا
قتلتم خَيْرَ من ركب المطايا ... وخيَّسها ومن ركب السفينا
إذا استقبلتَ وجه أبى حسين ... رأيت البدر راقَ النـــاظرينا
لقد علمتْ قريشٌ حيث حلَّتْ ... بأنك خَيْرُها حسباً ودينـــا

وقد كثُرت الأشعار فى هذه الحروب الأهلية منذ الثورة على عثمان ، فقد كان بعض الثائرين عليه والساخطين يصورون ثورتهم وسخطهم فى أشعار كثيرة[٣] ، ويُقتل عثمان ، ويبكيه كثيرون وخاصة من بنى أمية . وقد ذهبوا يتوعدون علياً ويتهددونه على شاكلة قول الوليد بن عقبة يخاطب بنى هاشم[٤] :

وإنا وإياكم وما كان منكمُ ... كصَدْع الصَّفَا لا يَرْأَبُ الصدعَ شاعبُه
همُ قتلوه كى يكونوا مكانه ... كما غدرتْ يوماً بكسرى مرازبُهْ

وقد مضى يحرّض معاوية على الأخذ بثأره فى أشعار كثيرة[٥] . وتطورت

---

(١) انظر فى مراثيه الاستيعاب ص ٤٨٥ — ٤٨٦ والطبرى ٤/١١٦ .
(٢) الأغانى ( طبعة دار الكتب ) ١٢/٣٢٩ والطبرى ٤/١١٦ وخيسها فى البيت الثانى : ذللها .
(٣) انظر الاستيعاب ص ٤١٠ .
(٤) الأغانى ( طبعة دار الكتب ) ٥/١٢٠ والكامل للمبرد ص ٤٤٤ .
(٥) انظر الأغانى ( طبع دار الكتب ) ٥/١٢٢ وما بعدها والاستيعاب ص ٦٢٢ والطبرى ٣/٤٤٩ .

الأمور . ونشبت وقعة الجمل بين على وبين طلحة والزبير وعائشة ، ودوّت فى هذه الوقعة أشعار حماسية كثيرة[١] من مثل قول القائل[٢] :

نحن بنو ضَبَّةَ أصحابُ الجمَلْ نَنْعَى ابن عفَّان بأطراف الأَسَلْ
ننازل الموتَ إذا الموت نَزَلْ والموتُ أشهى عندنا من العَسَلْ

والتقى على بمعاوية فى صفّين ، وحمى وطيس المعارك ، وتنادى الشعراء يهددون ويتوعدون ، وكلٌّ يعتقد أن الحق فى جانبه ، من مثل قول أبى الطُّفَيْل عامر بن واثلة يصف بعض أنصار علىٍّ :

كهولٌ وشبانٌ وساداتُ معشرٍ على الخَيْل فرسانٌ قليلٌ صدودها
شعارهمُ سيما النبىِّ ورايــةٌ بها انتقم الرحمنُ ممن يَكيدها

وردَّ عليه خزيمة الأسدى يصف جيش معاوية[٣] :

ثمــانون ألفاً دينُ عثمان دينهم كتائبُ فيها جِبْرئيلُ يقودها
فمن عاش منكم عاش عبداً ومن يمتْ فنى النار سُقْياه هناك صَديدها

ويفيض كتاب وقعة صفين لنصر بن مزاحم بأشعار كثيرة اندلعت فيها نيران العصبيات القبيلية[٤] ، وقد يكون دخلها انتحال ووضع واسع ، ولكن فى تاريخ الطبرى وفى كتب الأدب وكتب الصحابة ما يكفى لبيان ما انزلق على الألسنة من أشعار ملتهبة[٥] . وقد تلت ذلك وقعة النهروان بين على والخوارج ، ومنذ خروجهم وشعرهم لا يَخْمد له أُوار . ومن غير شك أذكت كل هذه الأحداث جذوة الشعر العربى إذكاء وأشعلتها إشعالا .

---

(١) تاريخ الطبرى ٣/٥٢٢ وما بعدها .
(٢) الطبرى ٣/٥٢٧ .
(٣) أغانى (طبعة دار الكتب) ١٥/ ١٤٩ .
(٤) وقعة صفين (بتحقيق عبد السلام محمد هرون) نشر المؤسسة العربية الحديثة ص ١٣٧ ، ٣١٢ ، ٣٤٧ ، ٣٧٦ ، ٤٨٧ وفى مواضع متفرقة .
(٥) انظر الطبرى ٤/١٦ وما بعدها

## ٤

## شعر الفتوح

خرج العرب من جزيرتهم بعد حروب الردة يجاهدون فى سبيل الله دولتى الفرس والروم . فقضوا على الأولى ، واستولوا على أهم ولايتين للثانية ، وهما الشام ومصر . وكانوا فى أثناء هذا الجهاد ينظمون أناشيد حماسية مدوِّية ، يتغنون فيها بانتصاراتهم ويتمدحون بشجاعتهم وما يؤدُّون لله ودينه . ومن الصعب أن نَعْرض كل ما نظموه فى مواقعهم المختلفة ، إنما نلم بطرف منه ، ولنقف قليلا عند موقعة واحدة فى الشرق هى موقعة القادسية ، وفيها يلمع اسم أبى مِحْجَن الثقفى[١] ، وكان مولعاً بالخمر فحبسه سعد بن أبى وقاص ، حتى إذا احتدمت المعركة توسّل إلى سلمى زوج سعد أن تطلقه — على أن يعود إلى قيده — ليُسْهم فى شرف المعركة ، فأطلقته وأبلى فيها بلاء حسناً ، وعاد إلى سجنه وهو ينشد[٢] :

لقد علمتْ ثَقِيفٌ غير فَخْرٍ ... بأنّا نحن أكرمهم سيوفا

فإن أُحْبَسْ فقد عرفوا بلائى ... وإن أُطْلَقْ أجرِّعْهم حُتوفا

وكان حول أبى مِحْجن فرسان كثيرون قصفوا الفرس وأطاحوا برءوس أبطالهم ، وهم يتصايحون بالشعر الحماسى ، منهم عمرو بن معديكرب الزُّبَيْدى[٣] ، وكان من أبطال الجاهلية وفرسانها وأسلم ، وكانت له آثار مشهورة فى القادسية واليرموك ونهاوند ، ومن شعره[٤] :

والقادسيةُ حين زاحم رُسْتَمٌ ... كنا الحماةَ بهنّ كالأشطان[٥]

الضاربين بكل أبيضَ مِخْذَمٍ ... والطاعنين مجامع الأضْغَان[٦]

---

(١) انظر فى ترجمة أبى محجن الأغانى (طبع الساسى) ٢١ / ١٣٧ والشعر والشعراء ١ / ٣٨٧ والإصابة ٧ / ١٧٠ والخزانة ٣ / ٥٥٠ وما بعدها والاستيعاب ص ٦٨٢ .

(٢) أغانى ٢١ / ١٤٠ .

(٣) انظر فى ترجمته كتب الصحابة وأغانى (دار الكتب) ١٥ / ٢٠٨ والشعر والشعراء ١ / ٣٣٢ وذيل الأمالى ص ١٤٥ والخزانة ١ / ٤٢٢ ، ٣ / ٤٦٠ ومعجم الشعراء للمرزبانى (طبعة الحلبى) ص ١٥ ومعاهد التنصيص ٢ / ٢٤٠ والعينى ١ / ٣٧٩ .

(٤) ذيل الأمالى ص ١٤٦ .

(٥) الأشطان هنا : الجنّ والمردة

(٦) الأبيض : السيف . المخذم : القاطع . مجامع الأضغان : القلوب .

ومنهم بشر بن ربيعة الخَثْعمى، وله يصور بلاءه وبلاء قومه فى مواقع القادسية[١] :

تذكَّرْ ـ هداك الله ـ وَقْعَ سيوفنا ببابِ قُدَيْسٍ والمكرُّ عَسِيرُ[٢]
عشيَّةَ ودَّ القوم لو أن بعضهم يُعار جَنَاحَىْ طائر فيطير
إذا ما فرغنا من قِراع كتيبةٍ دَلَفْنا لأُخرى كالجبال تسير[٣]
ترى القوم فيها واجمين كأنهم جمالٌ بأحمالٍ لهنَّ زفير[٤]

وممن له بلاء حسن فى القادسية قيس بن المكشوح المرادى ابن أخت عمرو بن معديكرب ، وهو الذى قتل رستم قائد الفرس فى تلك المعارك، وله يصور ذلك[٥] :

جلبتُ الخيلَ من صَنْعاءَ تَرْدِى بكل مدجَّجٍ كالليث سامى[٦]
إلى وادى القُرَى فديار كلبٍ إلى اليَرْموك فالبلد الشآمى
وجِئْن القادسيَّة بعد شَهْرٍ مسوَّمةً ، دوابرُها دوامى[٧]
فناهضنا هنالك جَمْع كسرى وأبناءَ المرازبة الكرام[٨]
فلما أن رأيتُ الخيل جالتْ قصدتُ لموقف الملكِ الهمام
فأضربُ رأسه فهَوى صريعاً بسيفٍ لا أفلَّ ولا كهام[٩]
وقد أبْلَى الإلهُ هناك خيرًا وفعلُ الخير عند الله نامى

وممن حضر القادسية الأسود بن قُطْبة ، وله فيها أشعار كثيرة[١٠] . وعمرو بن

---

(١) أغانى (طبعة دار الكتب) ١٥/٢٤٣ .
(٢) قديس : يريد القادسية أو موضع بجانبها.
(٣) دلفنا : تقدمنا .
(٤) واجم : من الوجوم وهو السكوت مع كظم الغيظ .
(٥) فتوح البلدان للبلاذرى (طبع المطبعة المصرية بالأزهر) ص ٢٦١ .
(٦) ترتدى الخيل : ترجم الأرض بحوافرها .
(٧) مسومة : معلمة . الدوابر : العراقيب . دوامى : ملطخة بالدم .
(٨) المرازبة : رؤساء الفرس .
(٩) أفل : مثلم . كهام : كليل لا يقطع .
(١٠) الإصابة ١/١٠٨ .

شأس الأسدى[١]، وكان كثير الشعر فى الجاهلية والإسلام ، وله يذكر قتل رستم[٢] :

قتلنا رُسْتَماً وبنيه قَسْرًا تثير الخيلُ فوقهم الهَيالا[٣]

وفرَّ الهُرمُزَان ولم يحامى وكان على كتيبته وبالا[٤]

وشهد القادسية أيضاً عروة بن زيد الخيل ، وله فيها شعر كثير على شاكلة قوله[٥] :

برزتُ لأهل القادسية مُعْلَماً وما كلُّ من يَغْشَى الكريهةَ يُعْلَم

ومن الشعراء البارزين الذين شهدوها ربيعة بن مقروم الضبى[٦] ، وقد ختم الجاحظ كتابه « الحيوان » بأبيات له يذكر فيها بلاءه حينئذ ، يقول فيها[٧] :

وشهدتُ معركةَ الفيول وحولها أبناء فارسَ بَيْضُها كالأَعْبَل[٨]

مُتَسَرْبِلى حلقِ الحديد كأنهم جُرْبٌ مقارفةٌ عَنِيَّةُ مُهْمِل[٩]

والأبيات من قصيدة رواها أبو الفرج فى أغانيه ، وهو فيها يتحدث بجانب صنيعه فى تلك الحرب عن اقتحامه لحوانيت الخمارين ويفخر بأنه يسقى صاحبه الصَّبوح ، ونحن نعرف أن الإسلام حرَّم الخمر ، ومن ثم كنا نقطع بأن القصيدة تتألف من جزءين قيل أولهما فى الجاهلية ، وقيل ثانيهما فى الإسلام ، وسنرى عند حسان بن ثابت قصيدة على هذه الشاكلة حين نترجم له فى الفصل التالى . ومن ذلك قصيدة لعَبْدة[١٠] بن الطبيب ، وهو من الشعراء المجيدين الذين أبلوا فى حروب القادسية والمدائن ، ونراه يسهلها بقوله[١١] :

---

(١) انظر ترجمته فى الأغانى ( طبعة دار الكتب ) ١١/١٩٦ والشعر والشعراء ١/٣٨٩ وابن سلام ص ١٦٤ والاستيعاب ص ٤٥٤ ومعجم الشعراء للمرزبانى ص ٢٢ .

(٢) الطبرى ٣/٥٠ .

(٣) الهيال : ما ينهال من الغبار .

(٤) الهرمزان : الكبير من حكام الفرس .

(٥) الأغانى ( طبع الساسى ) ١٦/٥١ .

(٦) انظر ترجمته فى أغانى (ساسى ) ١٩/٩٠ والشعر والشعراء ١/٢٧٩ والإصابة ٢/٢٢٠ والخزانة ٣/٥٦٦ .

(٧) الحيوان ( طبعة الحلبى ) ٧/٢٦٣ .

(٨) البيض : الخوذ . الأعبل : حجر أبيض .

(٩) يشبه الفرس بإبل جرباء . مقارفة : من القراف وهو داء يقتل البعير . العنية : طلاء للجرب ، وأراد نفس الإبل الجربى . والمهمل : الذى يهمل الإبل فى المرعى .

(١٠) انظر فى ترجمته الأغانى ( طبعة الساسى ) ١٨/١٦٣ والشعر والشعراء ٢/٧٠٥ والإصابة ٥/١٠١ والمرشح ص ٧٥ .

(١١) انظر القصيدة فى المفضليات ( طبعة دار المعارف ) ص ١٣٥ .

هل حبل خَوْلَة بعد الهجر موصولُ  أم أنت عنها بعيدُ الدار مشغولُ

ويمضى فيذكر جهاد المسلمين للفرس ، يقول :

يقارعون رءوسَ العُجْم ضاحيةً  منهم فوارسُ لا عُزْلٌ ولا مِيلُ[1]

ويحدثنا عن هجرته مع قومه وأنهم إنما يبتغون ثواب الله ، يقول :

نرجو فواضلَ ربٍّ سَيْبُه حسنٌ  وكل خيرٍ لديه فهو مقبـــول

ولكنا نُصْدَمُ فى آخر القصيدة بوصفه المسهب لمجلس شراب ، ومن ثَمَّ كنا نقطع بأن للقصيدة أصلا قديماً يتصل بحياة الجاهليين الوثنية وما كانوا يحلّون من خمر . وقد أضيفت إلى هذا الأصل قطع جديدة ، تتصل بالهجرة فى سبيل الله ورسوله ووصف معارك العرب مع الفرس .

وعلى هذا النحو نستطيع دائماً أن نجمع كثيراً من الأشعار التى نُظمت فى كل معركة ، سواء مع الفرس أومع الروم ، وإن ما تطفح به كتب الصحابة مثل الاستيعاب والإصابة وكتب التاريخ مثل الطبرى وكتب الأدب مثل الأغانى وكتب الجغرافية مثل معجم البلدان لياقوت ليؤلف للعرب فى الفتوح ملحمة ضخمة . ولم تكن كلها أشعاراً حماسية ، ففيها مراث رائعة لبعض من كانوا يفقدونهم ، من ذلك قصيدة كَثِير بن الغَرِيزة التميمى يرثى بها من أصيبوا فى معارك الطَّالَقان وجُوزَجَان لعهد عمر بن الخطاب ، وفيها يقول[2] :

سَقَى مُزْنُ السحابِ إذا استهلَّتْ  مصارعَ فتيةٍ بالجُـوزَجانِ

وما بى أن أكون جَزِعْتُ إلا  حنينَ القَلْب للبَرْق اليمانى

ورُبَّ أخٍ أصاب الموتُ قبلى  بكيتُ ولو نُعِيتُ له بكانى

وعبَّروا فى أثناء ذلك عن حنين بالغ إلى ديارهم وأهليهم . وبجانب هذا الحنين والرثاء نجد بعض الشعراء يتحدثون عن بلائهم فى المغازى بعامة ، على نحو

---

(١) يقارعون : يضاربون . العجم : الفرس . العزل : جمع أعزل وهو من لا سلاح معه . الميل : جمع أميل وهو الذى لا يحسن ركوب الخيل.

(٢) أغانى ( طبعة دار الكتب ) ١١ / ٢٧٨ حيث سرد أبو الفرج القصيدة فى ترجمته وانظر فيه الإصابة ٥ / ٣١٨ والخزانة ٤ / ١١٨ ومعجم الشعراء ص ٢٤٠ .

ما نجد عند زياد بن حنظلة فى وصفه لمغازى الشام لعهد عمر وما أفاءه الله على المسلمين[١] ويروون أنه كان لأوس[٢] بن مَغْراء « قصيدة طويلة ذكر ما كان فيها من بلائهم فى الفتوح وفخر فيها بقريش لم يقل أحد أحسن منها » ومن قوله فيها :

محمَّدٌ خَيْرُ من يمشى على قَدَمٍ وكان صافيةً لله خُلْصانا

ويمكن أن نضم إلى هذه الأشعار شكوى بعض الجنود من الولاة والعمال حين يخونون فيما ائتُمنوا عليه ، على نحو ما نجد عند يزيد بن الصَّعِق . فقد أرسل بشكوى طويلة إلى عمر بن الخطاب من أصحاب الخراج ، يقصُّ عليه كيف أثْرَوْا ثراء غير مشروع من أعمالهم التى يتولونها ومما يأخذون لأنفسهم من المغازى ، وفيها يقول[٣] :

نؤوبُ إذا آبوا ونغزو إذا غَزَوْا فأنَّى لهم وَفْرٌ وليس لنا وَفْرُ

وقد وصفوا كثيراً مما شاهدوه فى فتوحهم من المعاقل والحصون والحيوان كالفيل . وتحدثوا عما نزل بهم من طواعين[٤] .

وهناك أشياء لا بد أن نلاحظها فى هذه الأشعار الكثيرة التى رُويت عنهم فى مغازيهم وفتوحهم . لعل أهمها أنها طُبعت بطابع الآداب الشعبية ، سواء من حيث نسيجها العام أو من حيث قائلوها ومن نسبت إليهم . أما من حيث النسيج فإنها لا تبلغ من المتانة مبلغ الأشعار التى نُسبت فى العصر نفسه إلى الشعراء المجوّدين ، وأما من حيث القائلون فإن كثيراً منهم يكاد يكون مجهولا ، لسبب بسيط وهو أنه من عامة الجند . ومن ثَمَّ اختلف الرواة فى نسبة كثير من الأشعار إلى أصحابها . ويكثر أن يُرْسل الراوى الشعر إرسالا بدون نسبته إلى شاعر بعينه . وينصُّ الطبرى على قطعتين كانت تتجاوب بهما الآفاق فى الجزيرة العربية ولا يُعْرَف من نظمهما ، ويعقِّب عليهما بقوله : « وسُمع بنحو

---

(١) طبرى ٣/١٠٨ .

(٢) انظر ترجمته فى الأغانى (طبعة دار الكتب) ٥/٨ والشعر والشعراء ٢/٦٦٨ والإصابة ١/١١٨ وابن سلام ص ٤٤٥ وفى مواضع متفرقة والموشح ص ٦٥ وما بعدها .

(٣) فتوح البلدان ص ٣٧٧ .

(٤) الحيوان ٤/١٣٧ والإصابة ٣/١٤، ٥/٦٠

ذلك فى عامة بلاد العرب[1] » . وكأن طائفة من شعر الفتوح تحولت إلى ما يشبه الأمثال التى يبدعها الشعب ، فناظمها لا يعرَفُ كما لا يعرف مرْسل المثل لأنه من أبناء الشعب وأبناء الشعب قلما ذُكروا أو مُجِّدوا بل إنه لا يعنيهم أن يذكروا أو يمجِّدوا ، إذ هم آخر من يهتم بهذا الفضل .

ويسود فى هذا الشعر الإيجاز ، فهو شعر اللمحات السريعة والمواقف الخاطفة ، وجمهوره لذلك مقطوعات قصيرة ، يجرى فيها الشاعر على سجيته دون تدقيق فى معنى أو تنقيح للفظ أو التماس وزن أو قافية . إنه يعبر عن خاطر التحم بصدره دون معاناة أو مكابدة ، ويرمى به فى سرعة كما يرمى بسهمه أو يضرب بسيفه ، غير مفكر فى تنقيح ولا فى تصفية أو تهذيب ، ولذلك كانت تشيع فيه البساطة وعدم التكلف لما يعترض صاحبه من شواغل الجهاد التى تحول بينه وبين إطالة الفكرة كما تحول بينه وبين المعاودة للفظ وتجويده وتحبيره .

وملاحظة أخيرة ، وهى أن قَصصاً كثيراً عن أبطال الفتوح وجهادهم فى حروب الفرس والروم أُضيف إلى هذه الأشعار . وقد حَمل لنا ياقوت فى معجمه كما حملتْ كتب التاريخ والأدب أطرافاً منه كثيرة . ومن غير شك خضع هذا العمل كله لمخيلة القُصَّاص فزادوا فى القصص والأشعار ما اتسع له خيالهم . ولكن مهما يكن فلهذا كله أصل صحيح ، وهو أصل ضخم إذ كان الشعر يتدفق على ألسنة الفاتحين ، وكانوا ينشدونه فى كل موقف وكل معترك ، مقصِّدين له حيناً وراجزين أحياناً أخرى ، وطبيعى أن يشيع فيه الرجز ، لأنه كان فعلا الوزن الشعبى الذى يَنْظم فيه عامة العرب .

---

(١) طبرى ٣/٨٣ .